الرؤى الثانية عشر

لو أننا

ضحى الدوري

مرَّتْ سنين العمر ياسيدي..ونحن مازلنا كما كنا..

لا عمرنا الماضي محى ذكرنا..ولا الذي بأيّ عفا عنا..

لا حُبنا لملم أشلائنا..ولا نسينا الحب وارتحنا..

ضحى الدوري

obeikan.com

لو أننا...

نسمات خريفية عذبة داعبت وجهها، وهي تنظر إلي الأفق من نافذة سيارة الأجرة التي تقلها إلى منزلها، بعد زيارة قصيرة إلى بيت جديها العجوزين، الذين لم يبق لهما من متع الحياة سوى السويعات التي تجمعهما مع حفيدتهما الوحيدة، كانت الشمس تُشارف على الغروب، مُصطبغة بلون الخجل، الذي يكسو خدود العذارى عند سماعهن أولى همسات الغزل من أول حبيب يطرق أبواب قلوبهن، وتنحدر نحو الأفق لتختتم يومًا آخر من أيام حياة (منال).

سرحت بنظرها بعيدًا، وتأملت المساحات الشاسعة التي تجري متراجعة مع تقدم السيارة في الشارع، تنشقت عبير الخضرة التي تزين الأشجار على جانبي الطريق، وامتلأ صدرها بشذى نسائم الهواء، الذي طالما أخذها بعيدًا عن هذه الحياة كلما تنشقته وهي تقطع هذا الطريق.

كان بإمكانها أن تستقل سيارتها الفارهة التي اشتراها لها زوجها كهدية عيد ميلادها قبل فترة، لكنها لم ترغب أن تفسد متعة تأملها لجمال هذه الطرقات بالقيادة، ولطالما كرهت مظاهر الترف وزهدت فيها، وفضلت أن تعيش حياتها ببساطة كما كانت تعيشها قبل ارتباطها بـ (وائل)، رفيق طفولتها وزميل الدراسة الثري الوسيم، الذي مدَّ يده

obeikan.com

لها لينتشلها من الحزن المُميت، بعد أن هجرها حبيب حياتها، والوحيد الذي نبض قلبها له في هذه الدنيا، حبيبها (مُنتصر)، الذي تركها دون أن يفسر لها سبب هجره ليرتبط بفتاة أخرى.

أنهي حبًّا دام سنوات في لحظات، وأطاح بكل أحلامها أرضًا، وداسها كما كان يدوس عقب سيجارته ويسحقها بعد انتهائه منها.

فجأة تسللت من راديو سيارة الأجرة نغمات أغنية انقضَّت على قلب منال كمخالب وحش كاسر، رغم رقة كلماتها ولحنها، شعرت أن قلبها يُرفرف بين ضلوعها وهي تستمع إلى الصوت العذب يهمس بحزن:

"لو أننا لم نفترق، لبقيتُ بين يديكِ طفلًا عابثًا، وتركتُ عمري في لهيبكِ يحترق"

اعتملت في صدرها غصة، تصاعدت كحمم بركان يغلي، لتفور من عينيها دموعٌ دون وعي منها، وانسابت الدموع على خديها كقطرات ندى تتدحرج على أوراق زهرة.

تذكرته رغمًا عنها، وطفت كل أيامهما معًا فوق سطح وعيها، كأنها حدثت منذ ساعات فقط، وليس منذ ١٠ سنوات، تذكرت كل شيء، كل الوعود الجميلة التي قطعها لها، كل لحظات الحب التي جمعتهما، كل نقطة ضوء لمعت في عينيه يومًا، وهو يتأمل وجهها بشوق ولهفة.

لطالما تذكرت كل هذه الأشياء على مر السنوات التي مضت، لكن ليس كما يحدث الآن، كان الأمر مُختلفًا هذه المرة، شعرت به بقوة جعلتها تشعر بخوف حقيقي، كأن كل شوقها إليه ظهر دفعة واحدة.

لم تعلم ماذا حدث، خلال لحظات شعرت أن السيارة تدور في مكانها، وسمعت صراخ السائق يتعالى وهو يحاول السيطرة على الموقف.

اهتزاز وتحطم وأصوات مُختلطة، تناهت إلي أذنيها لحظة ارتطام رأسها بشدة بشيء ما، بدأت الصور تظهر مشوشة أمام ناظريها، والتقطت أصوات رجال ونساء مختلفة، وشعرت أنها تُسحب إلى الأعلى، حاولت أن تميز شكل من يحملها، نظرت إلى عينيه، إنها نقاط الضوء ذاتها، الوجه الأسمر ذاته، نبضات القلب التي تطرق داخل الصدر الذي أسندت رأسها عليه هي ذاتها، التي كانت تسمعها حين يضمها، منتصر.

لم تعلم كم من الوقت مضى، ولم تفهم شيئًا مما جرى لها، تصورت أن كل شيء كان حلمًا، فتحت عينيها تدريجيًّا، وتسلل ضوء المصباح الذي يُنير غرفتها في المشفى ليمنعها من تمييز ماترى لأول وهلة، ثم بدأت الصورة تتضح، هل وجه منتصر الذي تراه ماثلًا أمامها هو من نسج خيالاتها المُتضررة بفعل الحادث؟ إنه هنا،

obeikan.com

قريب منها لدرجة أنها تشعر بأنفاسه على وجهها، وعيناه تبحثان وسط عينيها عن أي شيء يُطمئنه.

همس باسمها: منال، هل أنتِ بخير؟ هل تسمعينني؟

إنه هنا حقًّا.

ليست الكلمات كافية لوصف موقف مماثل، يداه اللتان تحتضنان يديها، همساته الدافئة التي أسكنت ارتجاف قلبها، خوفه الذي يفضح سيطرتها على حبه رغم سنين البعد، تكلمت الدموع بدلًا عنهما، لكن منال سرعان ماتداركت موقفها، وتذكرت بألم أن الماثل أمامها هجرها بكل قسوة، وترك في قلبها جرحًا لايوجد على هذه الأرض ماهو كفيل بمداواته، تحاملت على نفسها وقالت له: أنا بخير الآن، كيف ظهرت هكذا فجأة؟

أخبرها انه كان يقود سيارته في ذلك الطريق عندما شاهد سيارتها تصدم الرصيف، وتتحطم وهرع للمساعدة، ليجدها مشقوقة الرأس نازفة، حملها وأسرع بها إلى المستشفى، شكرته بكلمات مُقتضبة، أحني رأسه متنهدًا عندما شعر أن لحظات الشوق التي جمعتهما قبل ثوان قد انتهت.

دقائق صمت انقضت طويلة كالدهور، وشفتاهما لا تجدان ما تقولانه، رفعت منال نظرها إليه ونظر إلى عينيها، لكن الكلمات لم تجد طريق الخروج من قلبيهما، لم تعلم منال ما الذي تريد أن تقوله

له أولًا، هل تعاتبه؟ هل تسأله عن السبب؟ هل تسأله إن كان سعيدًا؟ أم هل تقول له ببساطة إنها اشتاقت إليه؟

بعد تردد وحيرة سألته أخيرًا: كيف هي حياتك؟

ابتسم ساخرًا وهو يقول: ليل يتبعه نهار، كحياة كل البشر.

- هل أنت سعيد يامُنتصر؟ زالت ابتسامته وتأمل عينيها:

السعادة شيء ليس له تعريف محدد في حياتي يامنال، وأنتِ؟ هل أنتِ سعيدة؟

- هل تستطيع أنت أن تُجيب على سؤالك هذا؟ أخبرني ماذا تعتقد؟ هل أنا سعيدة؟

رمقها بحيرة: ولماذا لا تكونين كذلك؟

ارتفعت نبرة صوتها وهي تسأله: لماذا لا أكون كذلك؟ هل هذه هي إجابتك حقًّا؟

صمت ولم يجبها لبعض الوقت، بحث في عينيها المغرورقتين بالدموع عن كلمات أخري غير التي قالتها، تكلم مُترددًا: ألستِ سعيدة؟ لماذا؟ ألم تتزوجي من حبيب طفولتك؟ أليس ذلك ماكنتِ تريدينه؟ ألا تعيشين كالأميرات معه؟ ألم يكن كل ذلك اختياركِ أنتِ؟ ما الذي جرى إذن؟

obeikan.com

أحست منال أن الأرض تهتز تحتها، وثورة من الغضب والحيرة والأسى تمزق دواخلها، مُحيلةً جسدها إلى كتلة من سعير، مالذي يتفوه به؟ هل يمزح؟ هل يسخر مني؟

- مالذي تقوله يامنتصر؟ قالتها بصوت يحمل من عبرات الألم ما لا تقوى على حمله الجبال.

- أقول الحقيقة يا منال

- أي حقيقة؟ قاطعته صارخة بوجهه: أي حقيقة هذه؟ لقد تركتني ورحلت، لم تكلف نفسك عناء التفسير لي، أو حتى إعطائي سببًا لرحيلك هكذا، كنت أظن شجارنا في ذلك اليوم كشجارنا في كل مرة، مجرد لظى غيرة اشتعلت في صدرك فجئت تُفرغها في وجهي ككل مرة، ظننت أنك ستأتي إلي في اليوم التالي حاملًا بيدك باقة الزهور مُعتذرًا ككل مرة، انتظرت أن تعود إليَّ لتُفسر لي سبب غضبك، وسبب الكلام الذي قلته في غضبك والذي، لم أفهم منه شيئًا ككل مرة، لكنك لم تعد.

ولم تعتذر؟ ولم تفسر؟ تركتني كذبيح قطعت أوداجه قطعًا غير مكتمل، أنزف ألـمًا وشوقًا وحيرة، لماذا يا منتصر؟ لماذا؟ كانت ملامح وجهه وهو يستمع إليها تُنبئ أن ركامًا من الذكريات المؤلمة انهار على رأسه مرة واحدة، والدموع التي بدأت تتلألأ في

عينيه ترسم ألف كلمة يعجز لسانه عن نطقها، ارتعشت الحروف على شفتيه وهي تخرج من بينهما:

تمزق قلبي يومها يا منال، تمزق قلبي ياحبيبتي، لطالما شعرت أن حب الطفولة الذي جمعك بوائل لم ينتهِ، لطالما شعرت أن نظراته إليكِ مازالت نظرة عاشق لمعشوقته، رغم أنك كنت تضحكين مني لكن قلبي ظل دومًا يرتجف كلما رأيتكما معًا.

أتذكرين سهى؟ زميلتك في الجامعة؟ جاءتني يومها تحمل صورة، صورة تجمعك بوائل، وقد أحاطك بذراعه مطوقًا كتفيك وأنتما جالسان في حديقة ما، أخبرتني أنكِ تخدعينني، وأنكِ مازلتِ تُحبينه، وتلتقين به في غفلة مني.

ثارت ثائرتي والتهمت نار الغيرة والحسرة بصيرتي، جئتكِ غاضبًا وصرخت في وجهكِ بأنكِ خائنة، وقلت لكِ أن تذهبي إلي حبيبكِ، وبأني لم أعد أريدكِ في حياتي.

دارت عجلة الذاكرة في رأس منال، وارتسمت أمام ناظريها صورة تلك اللحظة التي جلس فيها وائل بجوارها وطوَّق كتفيها بذراعه وهو يمازحها، وكيف أنها أبعدت يده، وأخبرته أنها لا تقبل أن يلمسها هكذا، شعرت أنها خرساء لاتقوى على الكلام.

استمعت إليه وهو مُسترسل في حديثه بمرارة رسمتها دموعه:

obeikan.com

بعد أن رحلت عنكِ هاتفني أخي ليُخبرني أن والدي قد توفى، أحسست أن عالمي بأكمله ينهار، سافرت إلي مدينتي على وجه السرعة، لا أستطيع أن أصف لكِ حزني يومها، وكم احتجتكِ إلى جانبي.

نسيت كل ماقالته تلك الفتاة وكل غضبي وغيرتي، ولم أفكر سوى أني بحاجة إليكِ، بعد أن انتهت مراسم الجنازة والدفن، اغتنمت أول فرصة لأتصل بكِ، لأبثكِ لوعة قلبي وحزني وأخبركِ بأني فقدت سندي في الحياة، اتصلت بكِ لأفاجأ بصوت وائل يرد على هاتفكِ ويخبرني أنكِ لاتريدين التكلم معي بعد اليوم.

شهقت منال كغريق اقتحم الماء رئتيه على حين غرة، ضحكت وبكت في آن معًا، لقد اكتشفت وهي في طريق عودتها إلي البيت في ذلك اليوم أن هاتفها مفقود، عقدت الصدمة مما تسمع لسانها، واستمرت تتلقى كلماته دون أن تنطق حرفًا واحدًا:

لكِ أن تتصوري مقدار حزني، حين تتخلين عني هكذا، يومها أحسست أن حياتي كلها صارت رمادًا، تحولت إلى مجنون، اتصلت ألف مرة ولا رد، اتصلت في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، والذي يليه، حتى أجابني صوته مرة أخرى، ليُخبرني أن لا أتصل بخطيبته مرة أخرى، وإلا فإن حسابي سيكون معه عسيرًا.

obeikan.com

خطيبته يا منال، حبيبتي أنا...

لم تعد تسمع ما يقول، كانت في هذه اللحظة كالمحتضر الذي بدأت روحه تفارق جسده، وانفصل عن ماحوله، تذكرت تلك الأيام، تذكرت دموعها وانتظارها له، وكلمات وائل التي تشجعها على نسيانه ورميه وراء ظهرها، وبأنه تافه لايستحق حبها.

تذكرت مجيء وائل بعد أسبوعين من يوم رحيل منتصر، ليخبرها والدموع تملأ عينيه أن حبيبها خطب فتاة من أقاربه وسيتزوجها قريبًا، تذكرت انهيارها ومرضها وحزنها، ويدي وائل اللتين لم تفارقا يديها، ومساندته لها، وكل الحقد الذي زرعه في قلبها تجاه حبيبها، وهالة الكبرياء التي أقنعها أن تحيط نفسها بها، فلا تحاول أن تدوس كرامتها وتتصل به بأي شكل.

كادت تغيب عن الوعي، وأحست أنها تطفو على الهواء، بالكاد استطاعت أن تجد صوتها لتسأله: وزوجتك؟ من هي تلك الفتاة التي تزوجتها؟

وعيناه تهيمان في عينيها بكل ما يعصف بهما من حب وحزن أجابها: أنا لم أتزوج يومًا يا منال.

تمت بحمد الله

obeikan.com

ضحى الدوري

ضحي حسيب طه الدوري، ولدت في ٢٢ من يناير(كانون الثاني) سنة ١٩٨٥، في مدينة صغيرة تقبع على أطراف بغداد تُدعى المدائن، والتي اشتهرت بوجود إيوان كسرى فيها.

تخرجت عام ٢٠٠٩ في الجامعة التكنولوجية ببغداد، متخصصة بهندسة الميكاترونكس، رغم أني لم أكن أميل للهندسة من قريب ولا من بعيد، فقد أحببت الأدب والفنون منذ نعومة أظفاري، وتمنيت أن أخوض أحد هذين المجالين، خصوصًا أن والدي كان فنانًا مختصًّا بالخط العربي والزخرفة الإسلامية.

أحلم حقًّا أن أُصبح يومًا ما روائية يُشار إليها بالبنان، وأن تُضيف كتاباتي شيئًا مُهمًّا للوحة الأدب العربي الغنية، لا أعترف بأنه يجب أن يكون هناك شخص بمثابة المثل الأعلى لي، لم أُحدد يومًا إنسانًا كمثل أعلى، كل من اجتهد في سبيل حلمه هو مثل أعلى، كل من انتصر على خيباته هو مثل أعلى، كل من سعى حتى وصل، هو مثل أعلى.

للتواصل معي على موقع التواصل الاجتماعي"الفيس بوك":

https://www.facebook.com/profile.php?id=100016235196088

obeikan.com